Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

التراث العربي وتعدد المرجعيات

Heritage and multiple references

1،نوال عاتي nawel ati 2 دين سميرة dine samira

1جامعة الشاذلي بن جديد – الطارف -، كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

Maître de conférences - B-, Université de Chadli Bin Jadid - El Tarf - Faculté des Arts et des Langues, Département de Langue et Littérature Arabes

ati-nawel@univ-eltarf.dz

2جامعة الشاذلي بن جديد – الطارف -، كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

Maître de conférences - A-, Université de Chadli Bin Jadid - El Tarf - Faculté des Arts et des Langues, Département de Langue et Littérature Arabes

dinesamira@univ-eltarf.dz

المؤلف المرسل: نوال عاتي nawel ati ati-nawel@univ-eltarf.dz

تاريخ الاستلام: 2022-01-25 تاريخ القبول : 2022-03-27

الملخص :

مثلت قضية التراث العربي هاجسا لدى الباحثين و النقاد والمبدعين كما دلت عليه النقاشات والسجالات التي طالت هذا المفهوم ، والتي أفرزت رؤى متعددة ومختلفة في طرائق تناولها ودراستها للتراث العربي ولسان حالهم ماذا يوجد فيه و من أين يبدأ وأين ينتهي ...؟ وغيرها من الإشكالات المتناسلة عن بعضها البعض لاسيما أن التراث العربي شكل حقلا متشعبا لقضايا يصعب الحسم فيها ، فهل ساهمت تعددية الرؤى في قضية التراث العربي في إزالة اللثام عنه و الإفادة منه ؟ أم ساهمت هذه الاختلافات في توسيع الهوة بين الماضي والحاضر ؟ وهل يمكن فهم احدهما في غياب الأخر ؟ وما مرجعية هذه الاختلافات في التعاطي مع الموروث العربي ؟

الكلمات المفتاحية: التراث العربي ، مرجعية ، الدين ، الأمة ، ا الإنسان .

Abstract: The issue of the Arab heritage represented an obsession with researchers, critics and creators, as evidenced by the discussions and debates that extended to this concept, which resulted in multiple and different visions in the ways of dealing with and studying the Arab heritage. What is in it, where does it begin and where does it end...? And other problems that are intertwined with each other, especially since the Arab heritage constituted a complex field of issues that are difficult to resolve. Or have these differences contributed to widening the gap between the past and the present? Is it possible to understand one in the absence of the other? What is the reference for these differences in dealing with the Arab heritage?

Keywords Arab heritage, reference, religion, nation, human being**.**

مقدمة:

تمهيد:

يعتبر التراث العربي وعاء حضاري للأمم و بطاقة هوية لها، تستعين به وقت الحاجة وتلوذ به كلما عصفت بها رياح الحاضر -لاسيما- أن واقع الأمة العربية الراهن مثخن بالآهات والأوجاع والانكسارات على خلاف الآخر المجاور لنا الذي يعرف تطورا وتقدما على جميع الأصعدة، ليكتسي النقاش حول قضاياه أهمية خاصة بالنسبة لمجتمعاتنا العربية والإسلامية لاعتبارات عديدة نجملها في الآتي:

- اكتسبت هذه الظاهرة طابعا كونيا في ظل ما يطلق عليه بالعولمة التي أفرزت نماذج ثقافية جديدة ساهمت في خلخلة النماذج التقليدية القائمة والنتيجة تجسدت في هشاشة الحدود التي يعتقد البعض أنها منيعة بين الحضارات والثقافات ليؤكد الواقع أنها سهلة الاختراق.

- أدت مفاهيم الحداثة والتحضر إلى ظهور نقاشات واسعة في الغرب بين المهتمين في مجالات وحقول متنوعة (فلسفية، سوسيولوجية، سياسية، وفنية....الخ) وأفرزت وجهات نظر وأطروحات غنية بمضامينها، من طرف مثقفين ، حيث

تخندقوا بين المؤيد والرافض لها ولكل واحد من هؤلاء شعاره وقناعه الخاص الذي يختفي وراءه[1]

لتنبثق بعض المفاهيم كالتراث العربي في زخم صراع الثنائيات الضدية بين مفهوم التقليد " الذي يشمل مجموعة من القيم والرموز المرتكزة على الماضي والمتجسدة في الحاضر، لذلك فإن مهمة التقليد هي الحفاظ على الأوضاع القائمة التي تقدس الماضي والدخول في مواجهة مع التحولات والتغيرات الطارئة للمجتمع، ولهذا السبب ارتبطت النزعة التقليدية بالنزعة المحافظة إذ أن التقليد ليس مجرد إحياء للماضي بل هو نموذج لسلوك معيش بشكل عام."[2]

جعلت هذه الضبابية أو الحالة السّديمية التي تعرفها الأمة العربية - المبطنة في العمق ولاءها لماضيها والمرتدية في الظّاهر قشور الحداثة الغربية أو ثقافة الآخر لسد هوّة الاختلاف والفارق بينهما في التطور والرقي - مفهوم التراث تحت محك الواقع ورهاناته فجاءت تعريفاته متقاطعة بتقاطع الأبعاد الإيديولوجية القديمة والحديثة لأن "عبارة "تراث" في حد ذاتها تكشف أن الصورة الحاصلة للقديم العربي في أذهان منتجي خطاب الحداثة صورة مخترعة، "ومعنى كونها مخترعة أنها تتبدل بحسب مشارب منتج الخطاب وطموحاته واستهاماته ومواقفه الفردية، وتحسب الصورة الحاصلة له عن نفسه وعن نتاجه ودوره التاريخي، لذلك تعددت صور القديم نفسها وتنوعت وشحنت عبارة "التراث" بدلالات متباينة متنابذة، إن التراث صنو الموت والبلى لدى الداعين إلى تخطيه وتجاوزه وهدمه، وهو جمّاع العوائق التي تحول دون تحديث الثقافة العربية وتحديد أسئلتها (...)هذه الصورة المخترعة للقديم العربي إنما تشكلت نتيجة إحساس فاجع باليتيم مردّه التسليم، بأن الثقافة العربية قد افتتحت تاريخ أقوالها".[3]

I.مفهوم التراث العربي:

أولا: المفهوم اللغوي:

وردت لفظة التراث في المعاجم العربية مأخوذة من مادة ورث ولها دلالات كالأتي:

- دالة على المال الذي يورثه الأب لأبنائه، واستخدمها القرآن الكريم بالمعنى نفسه في قوله تعالى: ﴿ وتَأْكُلُونَ التُرَاَث أَكْلاً لَمًّا ﴾*[4]

- دالة على البقاء والاستمرار، ورِث أباه ومنه بكسر الراء يرثه ، ورثا ووراثة بكسر الكل وأورثه أبوه وورثه جعله من ورثته والوارث الباقي بعد فناء الخلق، وفي الدعاء " أمتعني بسمعي وبصري واجعله الوارث مني أي أبقه معي حتى أموت".

- دالا على الحركة: توريث النار أي تحريكها لتشتعل وَوَرْثَان كسكْران.

- دالا على صلة الرحم: والوِرْثَة بالكسر بَطْنُ نسبوا إلى أمّهم."[5]

أما بعض القواميس العربية الحديثة فتُعرف التراث (التقاليد/ traditions) بأنه انتقال بعض المعتقدات وأنماط السلوك والأنشطة من جيل إلى جيل آخر، وقد يستخدم مصطلح التراث بمعنى الثقافة، أو كعنصر ثقافي ينتقل عبر الزمان وتحقيق درجة من الدّوام والاستمرار، والتراث قد يكون شفاهيا أو تراثا شعبيا

أو رواية شعبية،وبالنسبة للنظم الاجتماعية ينتقل التراث عن طريق عمليات النشأة الاجتماعية حيث يكتسب الطفل العرف وأنماط السلوك المعتاد من الأسرة والمدرسة وجماعة الرفاق[6].

أما في المعاجم الأجنبية فيعرف التراث على أنه ثروة انتقلت من طرف شخص مات وانتقلت منه بالتوارث"[5]

كما أطلقت كلمة "Heritage" كمعنى مجازي للدلالة على العادات والتقاليد والمعتقدات لحضارة ما وتشتمل بصورة عامة التراث الروحي "[7]

تظهر هذه التعريفات اللغوية الممتدة بين القديم والحديث وبين العربي والأجنبي أنها مربوطة فيما بينهما بخيوط رفيعة وإن ابتعدت إذ تحيل في عمومها على الانتقال سواء أكان ذلك من شخص إلى شخص كالثورة المادية (المال) لاسيما بين ذوي القربى - أو ما كان من أمة لأمة ومن جيل إلى جيل ومن زمن لزمن - كانتقال الأشياء المعنوية والروحية كالعادات والتقاليد

والأنماط السلوكية وغيرها و ظهرت هذه الأخيرة بجلاء في الآونة الأخيرة سواء لدى العرب أو الغربيين.

ويبدو الانتقال مربوطا بأسباب فهو ليس عشوائيا وإنما له أسبابه وصلاته الخاصة التي تجعله مقبولا ليصبح انتقالا محكوما بأصول وشروط وعلاقات بين الناقل والمنقول منه و تظل صلة النقل بين الطرفين مغذاة بأواصر على الدوام ،كما يكشف التعريف اللغوي لكلمة "التراث"أن معنى الكلمة ظل فقيرا جدا مقارنة بمعناها الحديث المتداول في الخطاب العربي ،مما يجعلنا نستنتج أن مصطلح التراث؛ بمعنى المورث الثقافي والفكري والديني والأدبي والفني لم يكن له وجود في خطابنا العربي القديم ولا في حقول تفكيرهم ولم يكن معروفا في خطاب أي لغة من اللغات الحية الحديثة. وهذا يدل على أن مفهوم "التراث" المتداول اليوم إنما يجد إطاره المرجعي داخل الفكر العربي المعاصر ومفاهيمه الخاصة وليس خارجها.

ولعل هذا الحكم يجعلنا نطرح جملة من التساؤلات حول إنسيابية مفهوم "التراث"- لاسيما في الفكر العربي المعاصر لأنه أشبه ما يكون بمارد خرج من قمقم الصمت ليرتفع دخانه في السماء دون أن يتشكل له ملمح بين؛ إذ أخذت تتقاذفه أهواء الباحثين وكل سرب فيهم يسوقه وفقا لتوجهاته الخاصة،ولا أدل على ذلك كثرة المفاهيم المشبعة بقناعات متنوعة ومختلفة، أثقلت كاهل المفهوم - "أي التراث العربي"- أكثر مما أبانت عنه اللثام، لهذا السبب رأينا أن نسوق جملة من التعريفات الاصطلاحية.

ثانيا: المفهوم الاصطلاحي:

يحتل مفهوم التراث مكانة مركزية في ساحة الفكر العربي المعاصر حيث استخدمه بعض المثقفين لاسيما في ظل تعالي "الدعوات إلى الأصالة والهوية وحفظ الشخصية الحضارية، (...) وهن في اشتغال الدينامية الاجتماعية - الثقافية الدافعة نحو التقدم والتراكم والصيرورة، وتؤشر على الميل في حركة ثقافة أو مجتمع - إلى الانكفاء والتراجع في مواجهة الواقع والتطور، أو في مواجهة زحف التحولات المنهمرة على الاجتماع والوعي من دون انقطاع فلا تكاد ثقافة تعود إلى نفسها عود المستمسك بمقدماته إلا متى اضطربت صلاتها بحاضرها والمحيط الحاضن، وامتنع عليها التفاعل الخلاق مع المعضلات التي يطرحها عليها ذلك المحيط"[8].

يبين هذا الموقف صورة الأصوات المتعددة بتعدد إيديولوجيتها والدعوات المختلفة ، فمنها من يدعو إلى حفظ الهوية ومقومات الذات العربية، حتى تتحدد ملامحها بالموازاة مع الأخر،لأن الذات العربية خاضعة كغيرها إلى التحول الذي تولد عنه أزمتها ، ومن الأصوات من يدعو إلى القطيعة مع الماضي كيفما كانت انجازاته ، لتبقى الإشكالية قائمة هل نتمسك بمقومات الماضي (أي التراث العربي) أم نتخلى عنه ونعتنق كل ما هو جديد كبديل له، أو نلجأ إلى الموازنة بينهما ؟!

إن حالة الارتياب هذه حول قضية التراث العربي ولدت مواقف متأرجحة يحكمها المد والجزر ويسيرها الخطاب الإيديولوجي الجدلي ، الذي يهيم على حاشية مفهوم التراث و لا يلامس جوهره إلا في حالات قليلة نادرة تمخضت بعدما احتد الصراع بين التوجهات المؤدلجة .

1- التراث عند الأصوليين*:

ارتبط مفهوم التراث العربي بمفهوم الأصالة حتى أضحى كلاهما وجهان لعملة واحدة، ما إن تستدعي الأولى حتى تستلزم الثانية،لان الأصالة "استدعاء لموروث يجري الارتفاع به عن معدل الزمان والتاريخ وإرساله كمطلق متعال-لهذا - كان الانصراف عنها إلى غيرها فعلا من أفعال التسليم بالحادث الطارئ، وإسقاطا للجواهر والماهيات وإحداثا غير مشروع في الطبائع، ومسخا للكينونة، فلا تكون الأصالة أصالة إلا متى امتنعت عن أحكام التغيير،لأن المتغير يلحقه الفساد و الأصالة صلاح مطلق."[9]

يظهر مفهوم التراث في ظل الرؤية الأصولية المحافظة مرادفا للفظة "الأصالة" كما جعلت له معايير ومقاسات نبينها في النقاط التالية:

1- عنصر القداسة، وا تلخصه عملية الارتفاع به عن معدل الزمان و التاريخ و إرساله كمطلق متعال.

2- عنصر الثبات؛ أي عدم تغييره لأنه هو الأصل و الجوهر و الماهية الذي لا يجوز المساس به كما أخذ التراث بعدا

أيديولوجيا لأنه تحول إلى وسيلة دفاعية تحصنت بها بعض النخب الفكرية والدراسات النقدية العربية " لتتعوذ بمدونتها الموروثة من شرور المدنية أو تلك الأفكار الوافدة في ركابها فتنسحب إلى خطوطها الدفاعية الخلفية ألا وهي "التراث العربي"[10]

كما عمد الأصوليون إلى حصر التراث العربي في بعده الديني أي الطابع الإسلامي في الأغلب وقدسوا التراث العربي بتقديسهم للدين وأحالوه إلى المطلق واعتبروا "العرب ليسوا أمة ضعيفة أو صغيرة في التاريخ (...) ولأنهم أمة تاريخية عريقة صدرت إلى العالم أحد التراثيات الكبرى، وصنعت حضارة جميلة باسقة في لحظة من اللحظات (لحظة العصر الكلاسيكي، أي القرون الهجرية الستة الأولى"[11] .

ولعل من إيجابيات التوجه الأصولي، أنها حركت مسألة الهوية والتعلق بالجذور، إنها محاولة عطش لمعانقة الجذور (...) وهي بهذا المعنى تمثل لحظة مشروعة أو شرعية، إنها لحظة الارتطام بالقعر، لحظة معانقة الذات التراثية التي انصرفنا عنها بحجة التخلف والرجعية"[12].

فكان كما يراه البعض: "عود على ذلك الموروث والماضي، وبحث عن ملاذ فيه، فكرا ومثالا ومرجعا، (...) ولأن جوهر إيديولوجيا الأصالة مدافعتها عن الهوية والأنا الحضارية الثقافية، الدينية، القيمية"[13] ،لهذا ظهر لدعاة الأصالة (الأصوليون) موضوعات ثلاث تشكل منطلقات رئيسية عندهم نلخصها كالآتي:

<u>أولها</u>: تفوق الإسلام على غيره من العقائد والنظم الاجتماعية والسياسية في الموارد والإمكانيات التي يقدمها لمعتنقيه، وهو تفوق يبين مركز أمة الإسلام بين الأمم التي نص عليها قرآنيا كاصطفائه للذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

<u>ثانيا</u>: مدنية الغرب آيلة إلى انحدار وانحطاط مادي وخلقي يسبب طبيعتها اللادّينية.

<u>ثالثا</u>: تذهب إلى القول بعدم حاجة المسلمين إلى الآخر(غير المسلم) في أمور اجتماعهم المادي والمعنوي لأن في موروثهم الثقافي والعقدي والحضاري ما يشبع حاجاتهم الحاضرة والمستقبلية فسيستنكفون عن طلب غيره من غيرهم، وانتهت إلى تأسيس رؤية نرجسية إسلامية (...)لتأسيس مستقبلا عليها[14].

ولخطاب الأصالة أربعة وجوه هي كالآتي:

1- لا تاريخية في مفهوم الأصالة؛ وهو " الذي ترتد فيه كل تواريخ الاجتماع الإسلامي إلى لحظات مرجعية هي الأس والجوهر من ذلك التاريخ (...) فيصبح مستقبلنا بهذا المعنى ماضويا ووفائنا الحرفي لهذا الماضي أقوم إلينا إلى المستقبل؛ أي أن الأصالة مطلقة ترفع لحظتها المرجعية فوق سائر أحكام الزمان والمكان والحوادث الواقعية بينهما أو قل إنها مطلقة لا تقبل أي شيء يرفع هذا التعيين منها (...) إنها أشبه ما يكون بالمقدس أو قل بهذه المثابة وسلاحها ليس شيئا آخر سوى النص الديني (...) وتكريس ثقافة نصية "[15].

2-اختراع معنى أصولي للأصالة **(...)** وتحنيط المنظومة المرجعية واحتباس التفكير في نطاق معطياتها.

3- مذهبية، فقد يقال إن في اجتماع الأمة وثقافتها ثوابت غير التاريخ هي مخزن الأصالة، وقد يصح ذلك إن كان قصد بالأصالة الثوابت العقدية الإسلامية، ولكن ماذا بعد هذه الثوابت مما ليس موضع إجماع، أو مما يعتري النظر فيه من تعدد في الرأي واختلافه؟ فالشيء لا يكون أصيلا إلا إذا وقع إجماع على أصالته.

4- معاداة خطاب الأصالة للتقدم والتغير الثقافي والاجتماعي) (...) فيحكم على نفسه بالانسحاب من التاريخ الإنساني والتقوقع على الذات، واجترار الموروث (...) وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة، وغناء النفس عن معارف الآخرين وتجاربهم[16] .

يلتقي مفهوم التراث العربي حسب الطرح الأصولي موازيا لمفهوم الأصالة ومربوطا بالبعد الديني أو النص الديني الثابت وما تولد عنه من قراءات وتفاسير واجتهادات في مسائل عدة فأخذ التراث العربي إذن هالة دينية عظيمة أضفى عليها الدين ما أضفى عبر مراحل زمنية وتاريخية متباينة ومتفاوتة حتى أنها التحمت بالنص الديني التحاما يصعب معه الفصل بين ما هو تراث وما هو ديني.

وعلى هذا الأساس جاءت مفاهيم التراث العربي " في ظل الإيديولوجيات الأصولية متصلة بالمفاهيم الدينية العقدية، كالإيمان، والعقل والله والإنسان وأهل الكتاب، الشرك،

الكفر (...) كل مفاهيم الماضي موروثة أبا عن جد وجيلا بعد جيل ، فإننا نتخيل أن لا نقطة بداية لها؛ أي أنها لم تولد يوما ما أم لم تركب في ظروف معينة، نتخيل أنها تقف فوق الواقع والتاريخ، ، نتخيل أنها مقدسة ومعصومة، وبالتالي فهي تضغط علينا بكل ثقلها وجبروتها"[17].

تحول التراث العربي وعاء للفكر الديني بكل تجلياته فاصطبغ بصبغته ولبس لبوسه، ليجيء التفكيك لهذا التراث العربي عبر عرضه لقراءات نقدية جديدة تتحرى الموضوعية وتتجنب الذاتية وتتسلح بمناهج حديثة حتى تزول البداهة عن مفاهيم الماضي، ونصل إلى قراءة جديدة لنصوص التراث تختلف عن القراءة القديمة التي لا تزال تسيطر علينا حتى الآن؛ بمعنى "توليد قراءة تاريخية تختلف عن القراءة التبجيلية ، المسيطرة على الأذهان والعقول منذ مئات السنين (...) أرخنت* كل ما نزعت عنه تاريخيته على مر القرون"[18] وقد قاد هذه العملية التوجه العلماني الذي وقف ضد التيار الأصولي وأعاد نبش المفاهيم وأعطى تفسيرات مغايرة وقراءات جديدة للتراث العربي.

التراث العربي في نظر العلمانيين*:

يتبنى التيار العلماني مقولات التغيير والتجاوز أو حتى الرفض لكل ما هو ثابت أو ما هو مقدس وقد تجلت هذه المعايير إما في مقولاتهم بشكل واضح أو بشكل تلميحات واستعارات كما في دعوة "جورج طرابيشي"، حيث دعا إلى "الحراك الثقافي وبشر بجدلية اللحام والمهماز - أو بلغة الاستعارة دائما - بجدلية الجذور والأجنحة (...) فالثقافات القومية ومنها العربية، تحتاج في سيرورة تمفصلها مع الثقافة المعولمة إلى أجنحة قدر حاجتها إلى جذور"[19].

فتكشف هذه الرؤية أن التراث العربي الذي يصفه بلفظة "الجذور" أضحى قاصرا عن وظيفته، والبحث فيه بحثا عبثيا إذ لابد لنا أن نتجاوز الأصول والجذور إلى الأجنحة؛ أي التحرر من قيود الماضي وكل ما هو قديم.

تمثل جدلية الجذور والأجنحة إذن جوهر مقولة الأسلمة، ومقولة التأصيل التي عمل "طرابيشي" على تبيان نقائصها لأنها "جدلية تملي على العقل التحليق في سماء التجريد أولا ثم الهبوط إلى أرض الحس ثانيا؛ أو بعبارة أخرى أنها جدلية تملي على المثقف العربي البحث في التراث الثقافي للأمة جذور لكل مكتشف جديد في فضاء الحضارة الغالبة المسماة بالحضارة الغالبة المسماة بالحضارة المعولمة"[20].

يرى العلمانيون التراث العربي غريبا وبعيدا عن الواقع العربي الحديث المسكون بالهزيمة و الانحطاط كما يعتقدون أن العودة للموروث كسند للحاضر أمر عبثي لا طائل منه ،لأن الهوة بين الماضي الحاضر لا يمكن ردمها أو تجاوزها وأن السياقات التي جعلت تراثنا في الماضي عامل بناء ليست ذاتها في الحاضر ، لذا تولدت لدى العلمانيين الرغبة في تجاوز التراث العربي، إلى التراث الغربي أو إن صح التعبير الثقافات الغربية؛(الحضارة المعولمة) حسب رأيهم.

تغدو "محاولة "جورج طرابيشي" مشتركة مع غيرها من المحاولات الفلسفية العربية في ركوبها العقل بقصد تغليف الحداثي الوافد من حضارة الآخر بغلاف الأصيل الضارب بجذوره في عمق التراث والثقافة العربيين، وهي بذلك تجسيد واضح لأزمة العقل الحداثي برمته، وبالتالي كانت جدلية الجذور والأجنحة هي جوهر مقولة الأسلمة ومقولة التأصيل التي يعمل طرابيشي على إبراز نقائصها"[21].

ويدعم طرابيشي رأيه هذا بقوله: "ليس لأحد أن يتوقع من الآن ما سيتمخض عنه المجهول العربي خلال ربع قرن القادم ، وكيف سيتم حسم الخلاف حول أم المسائل الخلافية ألا وهي العولمة في يومنا الحاضر ولكن بعيدا عن بكائيات الجرح النرجسي، وفخريات التضخم الأنوي، فإن درس الواقعية الذي لا يؤمن بوجود نقلات عجائبية يجبرنا على أن نكون أميل إلى التشاؤم في مبتدئ تلك المهلة الزمنية ولكن دون أن يسد علينا باب التفاؤل"[22].

ويقاسمه "علي حرب" نفس الرؤية للتراث العربي كما يقترح الذوبان في تاريخ الغرب قصد بلوغ مستوى الخلق والابتكار لأنه رأى في المتشبث بالتراث العربي كمن تشبث بالتصورات الأزلية والماورائية"[23] ،فنستنتج أن العلمانيين لم يحددوا مفهوما للتراث العربي بقدر ما رأوا فيه قصورا وعجزا سببه تعلق التراث العربي بالبعد المعنوي النابع من المقدسات الدينية الروحانية التي تمسك بها الأصوليون قبلهم، والتي جعلت التراث العربي ثابت وغير قابل للتغير ومسايرة الواقع

.

الجديد، مما ولد صراعا بينه وبين الجديد لهذا وصف العلمانيون التراث العربي بالمصطلحات الآتية :"التصورات الأزلية، والماورائية، والطابع التجريدي بالجذور".

غير أن هذه المفاهيم التي أعطيت للتراث العربي في التوجهين الأصولي والعلماني ظلت مؤدلجة، بحثت في التراث العربي انطلاقا من لعبتي الصراع بين الطرفين؛ أي المحافظ السلفي الأصولي والعلماني المتأثر بالغرب وبإنجازاته والناقم على التدهور الذي يشهده الواقع العربي الراهن كما يعكسه التساؤل الذي طرحه رد نصر حامد أبو زيد بقوله:" لماذا حين يذكر "التراث"، يتبادر إلى الذهن "الدين" أو الفكر الديني بصفة عامة والإسلامي منه بصفة خاصة؟ (...) لماذا يلح علينا هاجس التراث هذا الإلحاح المؤرق، والذي يكاد يجعلنا أمة فريدة في تعلقها بالماضي كلما جد بها من الأمور، أو مرت بأزمة من الأزمات وما أكثرها؟ فإذا كان التقدم يشير إلى المستقبل ويدل على الحركة، فإن التراث يشير إلى الماضي ويدل على السكون والجمود، وكأن العربي قد كتبت عليه دون البشر كافة أن تسير قدماه إلى الأمام بينما يلتفت برأسه إلى الخلف (...) لقد تحول التراث الذي تم اختزاله في الإسلام إلى هوية يمثل التخلي عنها وقوعا في العدمية وتعرضا للضياع صار معبرا عن عراقتنا وأصالتنا في تاريخ الوجود الإنساني (...) الذي يعني أن التعلم من الآخر الذي تعرفنا عليه، تعرفا معتديا غازيا محتلا لأراضينا مستغلا لأوطاننا"[24].

لقد توجه كلا الطرفين إلى مفهوم التراث العربي ليس بحثا في ماهيته وكيفية اشتغاله، بقدر ما كانت خطاباتهم دعوات وجهتها أغراض اديولوجية كالدعوة إلى التحديث والتغيير للوصول إلى التطور والرقي المنشود داخل المجتمعات والدعوة للمحافظة على الهوية والذات والرجوع إلى أمجاد الماضي ومقدساته لأن "هذا الخطاب يعتصم في المقابل بالتراث الذي صار رداء الهوية والخصوصية التي تعني التمايز، وموقف خطاب النهضة (*) من التراث هو موقف التأمل والتساؤل والفحص، ورفض التماهي معه أو مع أحد تياراته واتجاهاته بعد إدراك تعدديته وتاريخيته"[25].

وبين هذا وذاك ترامت هنا وهناك أمواج التراث العربي تتكسر حينا على أصوات الأصوليين، وتعزف حينا آخر على وقع العلمانيين، وبالتالي بات مفهوم التراث في ظل المد والجزر بين الطرفين باهتا، يسربله الضباب من كل جهة، ويلقي البعض باللائمة في:" ضمور مفهوم التراث وقوفه عند حدود التراث الديني لأن آلية توليد النصوص هي المسؤولة عن جعل التراث الديني الإطار المرجعي الوحيد للعقل العربي، وقد ساعد على تثبيت هذه الآلية، بل وتعميقها عوامل متعددة، نكتفي ها هنا لتحليل عاملين هما: الركود العربي وتعقد العلاقة بين الأنا والآخر"[26]؛ فهل كانت هذه الصورة الحاقدة على الماضي القديم والمبهورة بالواقع العربي الحديث صورة طبيعية أم مصطنعة؟ !

إن الرؤى المختلفة و المتباينة للتراث العربي قد تبدو صورة طبيعية أوجدتها ملابسات الواقع العربي غير أن التمعن فيها وسبر كنهها وكشف أغوارها يبدي لنا العكس ،وهذا ما أكدته بعض أراء المفكرين والنقاد والدارسين إذ يذهبون إلى القول بأنها:" صورة مخترعة تشكلت نتيجة إحساس فاجع باليتم، مردة التسليم بأن الثقافة العربية افتتحت تاريخ أفولها في الفترة التي تنعت بكونها "عصور الانحطاط" (...) ولهذه الصورة منبتان، منبت عربي تجلى في نظرية القدامى التي تشكلت مسكونة من الداخل بالحرص على تدجين النصوص وترويضها ولجم المتوحش فيه حتى تخدم المدينة وناسها وقيمها؛ فهذه النظرية لم يكن هدفها فهم النصوص بقدر ما كانت تهدف إلى احتوائها واحتواء الإنسان بلجم نزواته وأهوائه وترويض رغباته واستهاماته الفردية." [27]

يبين هذا الاتجاه أن هذه الرؤية الناقصة عن التراث العربي القديم نابعة من رغبة القدامى أنفسهم في التقوقع والانطواء الذي ولد نماذج تحليلية وقراءات نقدية وأنماط تفكير بعيدة عن التفسير المحتكم لمفهوم العقل والمنطق والحرية في تجاوز النمط السائد رغم بعض الأنماط المختلفة من التراث سواء كانت إبداعا أدبيا أو غيره من مناحي الفكر والثقافة تسللت إليها مناحي التجاوز الذاتية والصبغات الفردية ولا أدل على ذلك بعض كتب المفسرين "كابن الجوزي*" الإمام الحنبلي- المأخوذة بمطاردة المكاره وتدوين ما كان من أمره إلى أن وقع هو ذاته في دائرة الفتنة، فصار يسند إلى إبليس ومكائده نعوتا تكشف إعجابه وافتتانه (...) فلم ينج من الوقوع في دائرة السحر"[28]. يمتلك التراث العربي الأنساق والقوالب الجاهزة والأنماط الفكرية الثابتة التي تحولت في لحظة ما إلى حواجز

وهمية غير انه تم اختراقها وتجاوزها في مرات عدة حتى من القدامى أنفسهم سواء في الخفاء أو في العلن - غير أن عملية الحفر والتنقيب عنها لم يتبدى بشكل واضح لأن النظرة الدونية الحداثية التي ولدت مع هذا الماضي القطيعة والواقع المأزوم التي احتضنته الحداثة وروادها من المحدثين الذين تسلقوا فوق تاريخهم جعل الرؤية تضييق والنتائج تتعثر في مسارب الصراع والتهالك أو الإسراف والمغالاة في نبد كل طرف منهم للطرف الآخر أي الصراع بين التيار الرجعي والعلماني- والذي قد أذكت ناره ورسبته كقناعة الخطابات الإستشراقية لأنها رسمت صورة قاتمة عن الشرق وقامت بترسيخها بشتى السبل .

التراث في الموقف الجدلي*:

قرأ أصحاب هذا الاتجاه التراث العربي بعيدا عن الرؤى الإيديولوجية التي حكمت الاتجاهين السابقين المحافظين والعلمانيين ،فتظهر ملامح الاختلاف بينه و بين الآراء الأخرى لأنه " يقوم على أسس ومبادئ تتناقض مع الأسس التي قاما عليها الاتجاهين السلفي والرافض، فتمت مواجهة الأول بنزع القداسة عن التراث والنظر إليه على أنه نتاج لوعي شري في التاريخ والمجتمع (...) ثم ربطوا دراسته بالمشكلات والقضايا التي يطرحها الحاضر"[29] ، لأنهم حاولوا فهم التراث العربي بعيدا عن الخطابات الإيديولوجية ، لذا انطلقوا من التراث ذاته باحثين عن نظرية تحكمه كحال "فهمي الجدعان " الذي وسم كتابه ب"نظرية التراث"، حيث عكف فيه إلى تفتيت حصيات التراث العربي وما اشتمل عليه من مفاهيم وعوالق أبعدت مركب التراث العربي عن جادته .

كما عرج على ذكر الأهواء المؤدجلة برياح التغيير وما يتبعها من إقصاء أو الأهواء المتشددة باسم حماية الهوية و الماضي المقدس الذي لا يمس ولا يدنس تحت أي ظرف، فابتدأ بتعرية أسباب هذه الرؤية مزيلا اللثام عنها بقوله:" إن الآراء المتباينة سواء تعلقت بآراء المتشبثين بالتراث أم الرافضين له سببها كون التراث متصل بماض مقدس وواقع متخلف، ونحن في هذه الحالة تحولنا إما إلى عبيد لهذا التراث، أو في حالات ما تحررنا منه تماما مكونين موقف من التراث إما ضمنيا و إما علنا"[30]، فساهم هذا الانقسام الذي عرفته الذات العربية المفكرة أو المبدعة، أو النافذة في التخندق داخل تيار ما دون الآخر مما جعل بعض الباحثين يبحثون في مفردات هذا الانشقاق ودواعيه؛ فهل التراث العربي في حد ذاته سبب هذا الإشكال أم القراءات التي صنعتها ثقافة الماضي والحاضر؟

من هذا المنطلق حلق بعض النقاد والدارسين في سماء التراث العربي كاشفين عن إشكالاته المربوطة بحدوده المتنوعة وعتباته ، وقد كانت هذه رؤية مغايرة للاتجاهين السابقين لأن للقديم مهما أمعن في المضي والتباعد سلطانه على الحاضر وله أيضا فاعليته حتى في أشد الخطابات حرصا على التملص من الماضي ، لقد بحث أصحاب هذا التوجه أهمية التراث العربي ودوره في الحاضر لاسيما- إن حدد مفهومه وفق رؤية واضحة بعيدا عن رواسب التمزق بين الحاضر والماضي، فعمد هؤلاء إلى تحديد الإشكالات التي عثرت خطى التراث العربي، والتي تتلخص كالآتي:

- إشكالية حدود التراث زمنيا

- إشكالية امتداده و تتفرع إلى ثلاث عناصر : الامتداد الديني / الامتداد بالأمة / الامتداد الإنساني

- إشكالية علاقته بالمقدس

وتتحدد قضية التراث العربي في ضوء هذه الامتدادات وما يلزم عنها إلا أنها لا تتحرك في المطلق بإطلاق و إنما تتحرك في الآني المشخص قبل كل شيء، بحيث يمكن القول إن المشكلة الأساسية للتراث العربي هي مشكلة إيديولوجية مشرعة الأبواب على الجهود التي تبذل من اجل تجاوز حاضر التخلف في جميع القطاعات وعلى جميع المستويات ، بغية إدراك عالم عربي بعيد عن الوهم والقهر و العقم .

خاتمة :

لا شك أن النظرة السلبية للتراث العربي والموقف المعادي له نابع من قناعات وسياقات خارجة عن الذات العربية الحاضرة التي تبني رؤاها إما بالعودة إلى قراءات الآخر الذي يختلف عنا في واقعه وتاريخه أو آتية من سياق ماضوى بعيد هو الآخر عن الذات والذي تحكمت فيه مقاسات السلطة وسطوتها .

لقد ظهر واقع الخطاب العربي الحديث إما صدى لقناعات وتجارب مجتمعات سابقة أو صدى لفترات تاريخية

سابقة وفي كل الأحوال يأتي هذا على حساب التجديد والإبداع والإصابة في التعامل مع الواقع ومعطياته، كما غطى مفهوم التراث بغطاء الخطابات السجالية والمفاهيم الإشكالية، فبدل أن تكون قراءة ترثنا سر إبداعنا وتطورنا تحولت إلى مصدر للأزمات فكرية تصل حد الاختناق بخلاف ما فعل الغرب الذي قرأ تراثه انطلاقا من واقعه . فلا يمكن للذات أن تتجاوز أزماتها إلا إذا تصالحت مع ماضيها وأتقنت فهم حاضرها وسياقاته المختلفة عن غيرها من السياقات الغربية أو العربية القديمة الخارجة عن زمنها.

. قائمة المراجع:

1- عز الدين ألخطيبي،أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية،منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ، 2009

[2]- محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل، الكتابة ونداء الأقاصي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2002، سورة الفجر، [الآية 19]. *

3 - ابن منظور، لسان العربي، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، مج، د ط ، 2003

[4]- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ج1، د ط ، د ت،

[5]- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2005،.

[1]- le robert dictionnaire de français, édition Martyn back et Sike-zimm, Paris, 2005, p 209

- Paul Robert, le petit robert , canada, paris ,1992- p924

[7]- عبد الإله بلقزيز، العرب والحداثة، دراسة في مقالات الحداثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

8- هاشم صالح، مخاضات الحداثة التنويرية، القطيعة الإبستمولوجية في الفكر والحياة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2008.

. 9- ينظر خالد حاجي، من مضايق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي والعربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2005،.

10- علي حرب، حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000 .

11- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2004

12- نصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة، ص20.

13- محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل، الكتابة ونداء الأقاصي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج1، ط1، 2002

14- محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل، خطاب الفتنة ومكائد الاستشراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج2، ط1، 2002،

15- محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2002،.

16- نظرية التراث في الرواية العربية، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2002،

. الهوامش:

1- ينظر عز الدين ألخطيبي،أسئلة الحداثة ورهاناتها في المجتمع والسياسة والتربية،منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 ، 2009 ، ص9

[2]- المرجع نفسه، ص55.

[3]- ينظر محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل، الكتابة ونداء الأقاصي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2002، ص17- 18. سورة الفجر، [الآية 19]. *

4- ابن منظور، لسان العربي، تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، مج، د ط ، 2003، مادة [ورث].

[5]- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، ج1، د ط ، د ت، مادة [ورث].

[6]- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، د ط، 2005، ص489.

[1]- le robert dictionnaire de français, édition Martyn back et Sike- zimm, Paris, 2005, p 209

- Paul Robert, le petit robert , canada, paris ,1992- p924

[7]- عبد الإله بلقزيز، العرب والحداثة، دراسة في مقالات الحداثين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص13.

* الثقافة :« نظام يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقوانين والعادات الجمعية،وغير ذلك من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع و الأساس في الثقافة يوجد في الشعور الإنساني "، ينظر محمد محمد أمزين، منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، و.م.أ، ط4 2008، ص19.

* هناك من نعتها الرجعية، وهي تضرب على وتر الجذور و الأصول، أي جذور (الهوية العميقة، حيث لم يكن من السهل على البعض مقاومة هذا الإغراء أو النداء الصادر عن الأعماق (أي نداء الأصول و الحنين إليها)، وقد انفجرت الحركة الأصولية في أوساط السبعينيات من القرن المنصرم.

وهناك من يرى أن عودة الأصولية ما هو إلا انتقاما مشروعا من هذا الإهمال الطويل الذي أبداه الكثير من المثقفين التحديثين الذين كانوا يعتقدون أن المسألة التراثية قد دخلت و أنه ما علينا إلا الانخراط في الإيديولوجيات الحديثة من أجل الواقع، ينظر هاشم صالح، مخاضات الحداثة التنويرية، القطيعة الإبستمولوجية في الفكر والحياة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2008، ص181- 182.

[8]- عبد الإله بلقزيز، العرب و الحداثة، ص14.

[9] - عبد الإله بلقزيز، العرب و الحداثة، ص15.

10 - هاشم صالح، مخاضات الحداثة التنويرية، القطيعة الابستمولوجية في الفكر والحياة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2008، ص196.

[11] - م. ن، ص198.

[12]- عبد الإله، بلقزيز، العرب والحداثة، ص18-19.

[13]- ينظر ،م ن ، ص 18-19.

[14]- م، ن، ص21.

[15]- م ، ن ، ص23-24.

[16]- هاشم صالح، مخاضات الحداثة التنويرية، ص202.

التاريخانية: سعت إلى تطوير منهج في قراءة الثقافة كفعل حي وإذابة * الحدود بين التاريخ والأنثربولوجيا والفن و السياسة والأدب و الاقتصاد وتمت الإطاحة بقاعدة اللاّتداخل التي كانت تحرم على دارسي اللسانيات التعامل مع أسئلة السياسة والسلطة مع ما هو في صلب الحياة" ينظر عبد الله الغدامي، الأنساق الثقافية ،ص34

[17]- ينظر، هاشم صالح ، مخاضات الحداثة ،من ص 191 إلى 202.

: تذهب نظرية « Secularization thesis » نظرية التحول العلماني * التحول العلماني إلى القول بسمة حتمية تربط نشأة المجتمع الصناعي وتحديث الثقافة، فهناك من يرى أن العلم الحديث والمعتقدات التقليدية أقل إقناعا، كما أن تعددية عوامل الحياة، قد كسرت احتكار الرموز الدينية، وأدى تحضر المجتمع إلى خلق عالم يتسم بالفردية واللامّعيارية، وعمل على تآكل الحياة الأسرية، وعلى جعل المؤسسات الدينية أقل شأنا كما ساهمت التكنولوجيا في تمكين الناس بصورة أعظم من السيطرة على بيئتهم، بدرجة تجعل الفكرة الدينية أقل خطورة وأقل إقناعا، ينظر: علي ليلة وآخرون، التغير الاجتماعي والثقافي، دار المسيرة، ط1، 2010، ص33-34.

[18] - ينظر خالد حاجي، من مضايق الحداثة إلى فضاء الإبداع الإسلامي والعربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص18-19.

[19]- المرجع نفسه ، ص19.

[20]- م، ن، ص، ن.

[21]- المرجع نفسه الصفحة نفسها، نقلا عن جورج طرابيشي، من النهضة إلى الردة، ص 191-192.

[22]- علي حرب، حديث النهايات فتوحات العولمة ومآزق الهوية، المركز الثقافي العربي، ط1، 2000 ص10.

[23]- النص والسلطة والحقيقة، إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 2006، ص13.

خطاب النهضة تعني العلمانية.*

[24]- نصر حامد أبو زيد، دوائر الخوف، قراءة في خطاب المرأة ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2004، ص60.

[25] - نصر حامد أبو زيد، النص والسلطة والحقيقة، ص20.

[26]- ينظر محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل، الكتابة ونداء الأقاصي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج1، ط1، 2002، ص18-19.

* ابن الجوزي، تلبيس إبليس، هذا الكتاب حافل بالقصص و بالأعاجيب، وبالحكايات التي تقوم على الإفراط والتزيد في الكلام، ومثله كتاب دم الهوي، ينظر المرجع: محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل، خطاب الفتنة ومكائد الاستشراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج2، ط1، 2002، ص34.

[28]- محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل، الكتابة ونداء الأقاصي، ج1، ص18.

* وردت هذه التسمية عند محمد رياض وتار في كتابه توظيف التراث العربي في الرواية العربية ص 23.

29 - ينظر: محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2002، ص23.

30- نظرية التراث في الرواية العربية، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، د ط، 2002، ص 23.